الفصل السادس

قضيّة الكلمات الأعجميّة فى اللغة العربية

أولاً : فى الشعر العربّى الجاهلى :

اللغة العربية فى شعرها ونثرها لم تغلق على نفسها أبواب العزلة ، لأن طرق الاتصال بين العرب وغيرهم كانت مفتوحة .

وقد نص القرآن الكريم على أن لقريش رحلتين ، رحلة فى الشتاء إلى اليمن ، ورحلة فى الصّيف إلى بُصْرى من أرض الشام .

ومن البدهىّ أن اختلاط العرب بغيرهم قبل الإسلام ساعد على فتح الباب أمام الكلمات الأعجمية ، وبخاصة فى مجال الشعر ، وذلك ما نتناوله فى النقطة التالية :

الكلمات المعرّبة فى الشعر الجاهلى .

لا نستطيع أن نقرّر هنا أن لهجة قريش أو لغتها التى يمثلها الشعر الجاهلىّ كانت بمعزل عن الأحتكاك اللغوىّ .

وقد ترك هذا الاحتكاك اللغوى فى الشعر الجاهلى بعض الكلمات التى لم تكن من نسيج لغة قريش أو غيرها من لهجات العرب الأخرى .

والتاريخ يحدثنا أن الكثير من شعراء الجاهلية قبل الإسلام كانت لهم علاقة بالمناذرة الخاضعين للفرس ، والغساسنة الخاضعين للرّوم .

فامرؤ القيس مثلا وفد إلى قيصر ملك الروم فى قضية ذكرها الأغانى [1] ، وسجّل طرفاً منها ابن قتيبة فى كتابه : « الشعر والشعراء » [2] .

وماذا يعنى اتصال امرىء القيس بقيصر ؟ ألا تمدّ لغة الرّوم زاده اللغوى العربىّ بكلمات رومية أجنبية ؟ فإذا أراد أن يعبر عما يجول فى نفسه من الشعر قفزت هذه

---

(١) الأغانى ٩/ ٧٧ وما بعدها .

(٢) الشعر والشعراء ١/ ١١٥ .

الكلمات الدخيلة إلى لسانه من حيث لا يدرى ولا يشعر ، لأنها أصبحت لصيقة بلغته العربية ، والتخلص منها صعب المنال [١] .

ومن الأمثلة على ذلك ورود كلمة : « فرانق » فى بيت من أبيات قصيدته التى قالها حينما توجّه إلى قيصر مستنجداً به على بنى أسد ، يقول :

ولو شاء كان الغزو من أرض حمير ولكنّه عمداً إلى الرّوم أنفرا
بكى صاحبى لما رأى الدّرْب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له : لا تبك عينك إنّما نحاول مُلكًا أو نموت فنُعذرا
وإنى زعيم أن رجعت مملّكاً بسَيْر ترى منه الفُرانق أزورا [٢]

وكلمه : « فرانق » التى وردت فى البيت الأخير ذكرها الجواليقىّ فقال : «والفرائق» قال ابن دريد : هو فارسى معرّب ، وهو سبع يصيح من بين يدى الأسد ، وكأنه ينذر الناس به ، ويقال : أنه شبيه بابن آوى ، ويقال له « فرانق الأسد » [٣] ، ومثل ذلك فى اللسان [٤] .

وفى شعر زهير وردت كلمة : « أردمون » فى قوله :

عوم القوادس قفىّ الأردمون بها إذا ترامى بها المقلولب الزّبد » [٥]

والأردمون كما فى «اللسان» : الملاحون [٦] .

وينص الدكتور السيد يعقوب بكر : أن كلمة : « الأردمون » معرّب : أريمون فى اليونانية وهو نوع من الشروع [٧] .

---

(١) انظر : التعريب فى التراث اللغوى للمؤلف / ٢١ .
(٢) الديوان / ٩٥
(٣) المعرب / ٣٨ .
(٤) اللسان : فرنق ١٢ / ١٨٢ .
(٥) ديوان زهير صنعة ثعلب : ٢٨٠ طبع دار الكتب والقوادس: صنف من المراكب معروف كما فى اللسان "قدس".
(٦) اللسان : ردم .
(٧) انظر دراسات مقارنه فى المعجم العربى ١٤

وفى شعر الأعشى وردت كلمات أجنبيّة ، ومعظمها من اللغة الفارسية ولهذا يبين ابن قتيبة : « أن الأعشى كثرت الفارسية فى شعره ، لأنه كان يفد على ملوك فارس »[1] والدليل على كثرة الفارسية فى شعره قوله :

فلأشربنّ ثمانينًا وثمانيًا وثمان عشرة واثنتين وأربعا
من قهوة باتت بفارسَ صفوة تدع الفتى ملكًا يميل مُصرّعا
بالجُلّسان وطيب أردانُه بالونّ يَضرب لى يَكُرّ الإصبعا
والنايَ نَرُم وبربطٍ ذى بُحّة والصّنجُ يبكى شجوه أنْ يوضعا[2]

وفى شعر النّابغة دخلت كلمة : « سفسير » فى قوله :

وقارَفتْ وهى لم تَجْرَب وباع لها من الفصافص بالنُّمىّ سفْسيرُ[3]

والسفسير بالفارسيّة هو : السّمسار . والنمى فى البيت : اسم للفلس وهو رومىّ.

ونقل الجواليقى فى المعرّب : « أن السّفسير : هو العبقرّى الحاذق بصناعته من قوم سفاسرة ، وعباقرة .

وفى شعر عنترة وردت كلمة « القمقم » فى قوله :

وكأن رُبًا أو كُحَيْلاً مُقْعدًا حش الوقودُ به جوانبَ قُمْقم

قال الجواليقى : قال الأصمعى : القمقم : هو رومىّ معْرّبَ[4].

وفى شعر الحارث بن حلّزة وردت فى شعره كلمة : « فارسية » حيث قال .

ثم حُجرًا أعنى ابن أمّ قطام وله فارسيّة خضراء

---

(١) الشعر والشعراء ١ / ٢٦٤

(٢) الشعر والشعراء ١ ٢٦٤ ، وفى هامشه النای ندم البربط الصنج من الات الملاهى

(٣) ديوان النابغة ١٣٦ ، ١٣١

(٤) المعرب ٢٦١ ، وفى هامشة الرب هو النمل الأسود للزنب وللسمن ، والكحيل الذى يضرب ... لان معتقدا غليظا ، وحشت النار إذا اوقدت وانظر ديوان عنترة ١٥٨ تروبه حسن الفار

والفارسية الخضراء: الكتيبة الخضراء من كثرة السّلاح، أعنى أن هذه الكتيبة سلاحها من عمل فارس [١].

وبعد ، فإن هذه الكلمات الأعجمية أو المعرّبة اقتحمت أقوي بناء شعرى وهو الشعر الجاهلى ، وبخاصة شعر المعلقات .

إلا يدل هذا على أن اللغة العربية لم تكن لغة مغلقة ، وأنها احتكت بغيرها من اللغات فتأثرت بها ، ودخلتها كلمات أعجمية ، ولكنها لم تكن هذه الكلمات الوافدة كثيرة ، ولذلك كان تأثيرها ضئيلاً . وبقيت اللغة العربية بصيغها وأبنيتها ، ومفرداتها ، ومعانيها ، وتراكيبها وأساليبها فى ازدهار حتى نزل القرآن الكريم بها ، وكان موضع تحدٍّ لها .

وفى نسج القرآن الكريم كلمات عند تحليلها . ومعرفة جذورها لا نجد لها أصلاً عربيًا ، وكونت هذه الكلمات مشكلة لغوية نتناولها فى النقطة التالية :

ثانياً : فى القرآن الكريم :

- قضية الكلمات الأعجمية فى القرآن الكريم .

اختلف العلماء فى اشتمال القرآن الكريم على كلمات أعجميّة ، وقبل أن أبين وجهة نظر هؤلاء العلماء المختلفين فى هذه القضية نعرض بعض هذه الكلمات التى وردت فى القرآن الكريم ، وثار حولها الخلاف ، واحتدم فى مجالها الجدل ، من هذه الكلمات :

ا - ما ورد بلسان الحبشة :

قال الطَبرىّ : حدثنا عنبسة عن أبى إسحاق عن أبى الأحوص عن أبى موسى : «يؤْتكم كفْلين من رحمته [٢] » قال : الكفْلان: ضعفان من الأجْر بلسان الحبشة .

عن أبى إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس :« إن ناشئة الليل » [٣] قال بلسان الحبشة : إذا قام الرجل من الليل قالوا : نشأ .

---

(١) شرح القصائد السبع الطوال ٤٩٦

(٢) الحديد ٢٨ (٣) المزمل ٦

وعن أبى إسحاق عن أبى ميسرة : « يا جبال أوّبى معه » [١] .

قال : سبحّى بلسان الحبشة .

حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سئل عن قوله : « فرّت من قَسورة » [٢] قال : هو بالعربية : الأسد ، وبالفارسية: شار ، وبالحبشية : قسورة [٣] .

- وقال السيوطى فى : « الإتقان » :

الأواه - الموقن بلسان الحبشة .

الجبت : اسم للشيطان بلسان الحبشة [٤] .

وقال الزركشى فى « البرهان » :

المشكاة : الكوة بلسان الحبشة [٥] .

٢ - ما ورد بلسان الفرس .

الأباريق - التنور - الدينار - السرّادق - الاستبرق - الزنجبيل .

٣ - ما ورد بلسان الرومان .

الرقيم - اللوح - القسطاس - طفقا .

٤ - ما ورد باللسان العبرى :

كيل بعير : الحمار - درست : قرأت - هدنا : تُبنا - راعنا : كلمة سبّ.

الرحمن: ذهب المبرد وثعلب إلى أنه عبرانى ، وأصله الخاء المعجمة .

---

(١) سبأ / ١٠ .

(٢) المدثر / ٥١ .

(٣) تفسير الطبرىّ ١/ ٨ .

(٤) الإتقان ١/ ١٣٨ .

(٥) البرهان ١/ ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

٥ - ما ورد باللسان القبطى :

- الملة الآخرة : الأولى .

- بطائنها : ظواهرها

- وراءهم ملك : أمامهم .

- اليمّ : البحر

٦ - ما ورد بالسريانية :

- الطور : جبل

٧ - ما ورد باليونانية :

- سريّا : النهر الصغير .

٨ - ما ورد بالزنّجيّة :

- حصب جهنم : حطب جهنم

- وقولوا حطّة : صواباً

٩ - ما ورد بالنبطيّة

- رَهْوًا : سهلاً

- سيّدها : زوجها بلسان النبط .

قال أبو عمرو : لا أعرفها فى لغات العرب

١٠ - كلمات مختلف فى نسبتها :

- السجل قيل : حبشى ، وفى المحستب لابن جنّى : فارسىّ معرّب .

- السندس : قيل : رقيق الدّيباج بالفارسية ، وقيل الرقيق من الستر بالهندية .

وقد أفرد السيوطى هذه الكلمات الأعجمية بالتصنيف ، وسماها : « المهذب فيما وقع فى القرآن من المعرّب »[١] .

---

(١) انظر الكلمات السابقة فى الطبرى ١ ٦ ، والإتقان ١ ١٣٨ ، والبرهان ١ ٢٨٧ ، ٢٨٨

- آراء العلماء فى هذه الكلمات:

أ - رأى من يقول: إنها أعجميّة:

دليل هـؤلاء ما روى سعيد بن جبير قال : « قالت قـريش لولا أنزل هذا القـرآن على رجل أعجـمى، فأنزل الـله تعالـى : « ولو جَعَلْناه قرآنـاً أعجميًا لـقالوا لولا فُصّلَت آيـاته أأعجمىٌّ وعربىّ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء » [١] .

فأنزل الله بعد هذه الآية فى القرآن الكريم بكل لسان [٢] .

وعن أبى ميسرة قال : فى القرآن من كل لسان » [٣] .

- وللإمام الجوينىّ رأي وجيه ، وتحليل لطيف بـينّ فيه السبب البلاغىّ فى وقوع بعض الكلمات الأعجميّة فى القرآن الكريم . وفيما يلى نتناول رأيه بالتفصيل :

- رأى الإمام الجوينىّ :

الإمام الجوينىّ فى رأيه أن وقوع الكلمات الأعجمية فى القرآن الكريم غير مستنكر بل إن له فائدة فى مجال البلاغة والبيان ، قد لا يشعر بها كثير من الناس ، لأنها تخفى عليهم بما تشتمل عـليه من دقة البيان سرّ الإعجـاز، استمع اليه مدافعًا عن كلـمة : «استبرق» يقول ما نصه :

« فإن قيـل : إن « استبرق » ليس بـعربىّ ، وغير العـربى من الألفاظ دون العـربىّ فى الفصاحـة والبلاغة فنقول : لـو اجتمع فصحاء الـعالم ، وأرادوا أن يتركوا هذه الـلفظة ، ويأتوا بلفظ يقوم مـقامها فى الفصاحة لعجزوا عن ذلك ، وذلـك لأن الله تعالى إذا حث عباده على الطـاعة ، فإن لم يرغبهم فيها بـالوعد الجميل ، ويخوفهم بـالعذاب الوبيل ، لا يكون حثّه على وجه الحكمة ... إلى أن يقول : -

ثم إن الوعد بما يرغب فيه العقلاء ، وذلك منحصر فى أمور :

---

(١) فصّلت / ٤٤ .

(٢) الطّبرى ١ / ٣ .

(٣) المصدر نفسه والصفحة .

الأماكن الطيبة ، ثم المآكل ، والمشارب ، ثم الملابس الرقيقة ، وكان ينبغي أن يذكر من الملابس ما هو أرفعها ، وأرفع الملابس في الدنيا الحرير ، ثم إن الثوب من غير الحرير لا يعتبر فيه الوزن والثقل ، وربما يكون الخفيف أرفع من الثقيل الوزن .

وأما الحرير فكلما كان ثوبه أثقل كان أرفع ، فحينئذ وجب على الفصيح أن يذكر الأثقل الأثمن، ولا يتركه في الوعد، لئلا يقصّر في الحثّ والدعاء ،ثم إنّ هذا الواجب الذكر ، إما أن يذكر بلفظ واحد موضوع له صريح أولا يذكر بمثل هذا ، ولاشك أن الذكر باللّفظ الواحد الصريح أولى ، لأنه أوجز ، وأظهر في الفائدة وذلك: « استبرق » .

فإن أراد الفصيح أن يترك هذا اللفظ ، ويأتي بلفظ آخر لم يمكنه ، لأن ما يقوم مقامه، إما لفظ واحد أو ألفاظ متعددة ، ولا يجد العربي لفظا واحداً يدل عليه ، لأن الثياب من الحرير عرفها العرب من الفرس ، ولم يكن لهم بها عهد ، ولا وضع في اللغة العربية للديباج الثمين اسم ، وانما عرّبوا ما سمعوا من العجم ، واستغنوا عن الوضع لقلة وجوده عندهم ، ونُدْرة تلفظهم به .

وأمّا إن ذكره بلفظين فأكثر ، فإنه يكون قد أخلّ بالبلاغة ، لأن ذكر لفظين لمعنًى يمكن ذكره بلفظ تطويل

فعُلم بهذا أن لفظ « استبرق » يجب على كل فصيح أن يتكلّم به في موضعه ، ولايجد ما يقوم مقامه [1]

ب : رأى من يقول : إنها عربية:

الذين يقولون إن هذه الكلمات التي عرضناها سابقاً ليست أعجمية بل هي عربية مجموعة من كبار الفقهاء والمفسرين واللغويين .

وعلى رأس الفقهاء الإمام الشافعي ، وخلاصة رأية تتضح فيما يلي

[1] لاحظ ... ٣٠

١ - رأى الإمام الشافعىّ :

أنكر الشافعىّ رضى اللّه عنه كل الإنكار أن تكون هذه الكلمات التى وردت فى القرآن أعجمية المنبت . لأن القرآن الكريم ، نزل بلسان عربى مبين ، ولا يمكن أن يصدق العقل مثل هذه الرّوايات التى تنسب هذه الكلمات إلى العجم .

وليس هناك أدنى شك فى نظر الشافعىّ فى أن القرآن الكريم من ألفه إلى يائه عربىّ صريح فصيح . لم يمدّ يده إلى كلمة وافدة أو تركيب أجنبى مستعار بل أحاط باللغة العربية إحاطة كاملة ، لأنه من صنع الله ، وصنع الله لا يتوقف على معونة فى كلمة أو كلمات تقدّم إليه من مختلف اللغات .

وكان الإمام الشافعىّ صريحاً كل الصراحة فى هذا الاتجاه ، مؤمناً كُلّ الإيمان بهذا الرأى لدرجة أنه قدم النصيحة خالصة ، حارة ملتهبة لهؤلاء الذين يدعون ما يدعون ليتركوا هذا الانحراف فى الرأى حتى يسلم لكتاب الله جلاله وسلطانه .

وأنى أترك للشافعى المجال لعرض علينا رأيه ، معزّزًا بالحُجة ، مدعماً بالبرهان قال الشافعى فى الرسالة :

« فقال منهم قائل : « إن فى القرآن عربيًا وأعجميًا فردّ الإمام على هذا الأدّعاء بقوله: « والقرآن يدلّ على أنه ليس من كتاب الله شىء إلا بلسان العرب ، ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبًا ، وأكثرها لفظًا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبىّ»إلى أن يقول:

« فإن قال قائل : ما الحجة فى أن كتاب الله مُحَصّنٌ بلسان العرب لا يخلطه فيه غيره؟

فالحجة فى كتاب الله . قال تعالى « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » [١] فإن قال قائل : فإن الرسل قبل محمد كانوا يرسلون إلى قومهم خاصة، وإن محمدًا بعث

---

(١) إبراهيم / ٤ .

إلى النّاس كافة ، فقد يحتمل أن يكون بعث بلسان قومه خاصّة ، ويكون على الناس كافة أن يتعلموا لسانه ، وما أطاقوا منه . ويحتمل أن يكون بعث بألسنتهم ، فهل من دليل على أنه بعث بلسان قومه خاصة دون ألسنة العجم ؟ » ويرد الشافعيّ على هذا الأعتراض بقوله :

« فإذا كانت الألسنة مختلفة بما لا يفهمه بعضهم عن بعض ، فلابد أن يكون بعضهم تبعاً لبعض ، وأن يكون الفضل فى اللّسان المتبع على التّابع وأولى الناس بالفضل فى اللّسان من لسانه لسان النّبىّ ، ولا يجوز - والله أعلم - أن يكون أهل لسانه أتباعاً لأهل لسان غير لسانه فى حرف واحد ، بل كل لسان تبع للسانه ، وكل أهل دين قبله فعليهم أتباع دينه » .

بهذا المنطق القوىّ ردّ الشافعى هذا الاعتراض ، ولكنه لم يكتف بذلك فوثّق هذا الرّد بكتاب الله تعالى فى وضوح يبدّد الباطل ، وصراحة تكشف البهتان فيقول : «وقد بيّن الله فى غير آية من كتابه ، قال الله تعالى : « وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين» (١) . وقال «وكذلك أنزلناه حُكْماً عربيّا (٢) . وقال : « وكذلك أوْحَيْنا إليك قرآنا عربيّا لتُنْذِر أُمَّ القرى ومنَ حولها(٣)» . وقال: « حم والكتاب المبين إنّا جعلناه قرآنًا عربيًّا لعلّكم تعقلون (٤) ، وقال : « قرآناً عربيّا غير ذى عوج لعلّهم يتّقون » (٥).

قال الشافعى : فأقام حجته على أنه كتاب عربى فى كل آية ذكرناها ، ثم أكّد ذلك بأن نفى عنه جل ثناؤه كل لسان غير اللسان العربى فى آية من كتابه ، فقال تبارك وتعالى : «ولقد نعلم أنّهم يقولون إنما يُعلّمه بشرٌ لسانُ الّذى يُلْحدون إليه أعجمىٌّ وهذا لسانٌ عربى مبين» (٦).

---

١ الشعراء ١٩٢ ١٩٥ ٢ الرعد ٣٧

٣ الشورى ١ ٤ الزخرف ١ ٣

٥ الزمر ٢١ ٦ النحل ١٠٣

وقال : « ولو جَعلْناه قرآنًا أعجميًا لقالوا لولا فُصِّلَت آياته أأعجمىٌ وعربىٌ [1] ، ويختم الشافعى دفاعه عن كتاب الله تبارك وتعالى بهذه النصيحة الغالية فيقول :

« فكان تنبيه العامة على أن القرآن نزل بلسان العرب خاصة نصيحة للمسلمين، والنّصيحة لهم فرض لا ينبغى تركه ، وإدراك نافلة خير لا يدعها إلا من سفه نفسه ، وترك موضع حظّه، وكان يجمع مع النّصيحة لهم قياماً بإيضاح حَقّ ، وكان القيام بالحق ، ونصيحة المسلمين من طاعة الله ، وطاعة الله جامعة للخير [2] .

بهذا الرّد المُقنع ، وبهذه النصيحة الخالصة دافع الإمام الشافعىّ عن قضية عروبة هذه الكلمات دفاعاً حارًا ، لزم فيه المنطق القوى ، والحجة البالغة ، والدليل القرآنى القاطع.

٣ - رأى الإمام الطبرىّ :

وفى هذا الخطّ الذى رسمه الشافعى اتّجه الإمام الطبرىّ فى تفسيره هذا الاتجاه ، وكأنه بأرائه التى بسطها فى هذه القضيّة يضع الدلائل الواضحة على صحة رأى الشافعى.

وخلاصة رأى الطّبرىّ أن هذه الكلمات الأعجميّة اتفقت بألفاظها ومعانيها مع الكلمات العربيّة فليس من المنطق أن نقول : إنها غير عربية ، بل هى عربية أعجمية ، وهذا هو نصه الذى عبّر فيه عن رأيه .

يقول الطبرىّ : « ولم يستنكر أن يكون من الكلام ما تتّفق فيه ألفاظ جميع أجناس الأمم المختلفة الألسن بمعنى واحد ، فكيف بمعنيين معاً ؟

ويقول أيضاً : « كما قد وجدنا أتّفاق كثير منهم فيما قد علمناه من الألسن المختلفة ، ذلك كالدّرهم ، والدينار ، والدواة ، والقلم ، والقرطاس ، وغير ذلك مما يتعب إحصاؤه، ويملّ تعداده » .

---

(١) فصلت ٤٤

(٢) الرسالة ٥٠

والطبرى لم ينكر هذه الآثار المروية عن ابن عباس ، أو عن سعيد بن جُبير بل يقرّر صحتها من وجه آخر غير ما يثبته هؤلاء الذين يقرّرون أنها أعجمية فيقول :

« فلو أنّ قائلاً قال فيما ذكرناه من الأشياء التى عدّدنا وأخبرنا اتفاقه فى اللفظ والمعنى بالفارسيّة والعربيّة وما أشبه ذلك عما سكتنا عن ذكره ، وذلك كله عربىّ لا فارسىّ ، أو قال : بعضه عربى ، وبعضه فارسىّ ، أو قال كان مخرج أصله عند الفرس فوقع إلى العرب فأعربته - كان مُستجهلاً إلى أن يقول : بل الصواب فى ذلك عندنا أن يسمّى عربيًا أعجميًا أو حبشيًا عربيًا إذا كانت الأمتان له مُستعملتَين » .. إلى أن يقول :

« وذلك هو معنى ما روينا عنه القول فى الأحرف التى مضت فى مصدر هذا الباب من نسبة بعضهم بعْض ذلك إلى لسان الحبشة ، ونسبة بعضهم بعض ذلك إلى لسان الروم، لأن من نسَب شيئًا من ذلك إلى ما نسبه إليه ، لم ينف بنسبته إيّاه إلى ما نسبه إليه أن يكون عربيًا »[1] .

رأى و مناقشه :

فى رأيى أننا إذا أردنا أن نصل إلى حلّ حاسم لهذا الإشكال ، فإنه لابدّ من الرّجوع إلى التاريخ العربىّ لنستفتيه فى هذه القضيّة التى كثر فيها الجَدَل ، واحتدم النزاع بين العلماء ، إننا إذا رجعنا إلى اللغة لتدلنا على كلمة عرب ، وما تعطيه من دلالة فماذا نجد؟

نجد اختلافاً كبيراً بين رجال اللغة من العرب فى مدلول هذه الكلمة :

فلسان العرب لابن منظور يذكر ما نصه : « اختلف الناس فى العرب لم سُموا عَرباً؟ فقال بعضهم : أول ما أنطق الله تعالى لسانه بلغة العرب : يعْرُب بن قَحْطان وهو أبو اليمن كلّهم ، وهم العرب العاربة ، ونشأ إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام معهم، فتكلم بلسانهم فهو وأولاده العرب المستعربة .

---

[1] الطبرى ١ / ١

وقيل : إن أولاد اسماعيل نشئوا بـ « عربة » ، وهى من تهامة ، فنسبوا إلى بلادهم ثم قال صاحب اللسان : « وكل من سكن بلاد العرب وجزيرتها ، ونطق بلسان أهلها فهم عرب يمنيّهم ومعدّهم »[١] .

والمستشرقون وعلى رأسهم المستشرق « ولفنسون » فى كتابه : « تاريخ اللغات الساميّة» : يرى أن كلمة : « عرب » كانت مستعملة فى اللغة العربية القديمة ، لتدل على أهل العربة : « الصحراء » أى لنوع خاص من قبائل الجزيرة العربية [٢] .

ويرى هذا المستشرق أن ما يقال فى المعاجم اللغوية العربية . من أن هناك فرقاً بين كلمة عربىّ وأعرابى ، وتخصيص الأولى بسكّان المدن ، والثانية بسكان البادية فلم يحدث إلا في عصور قريبة من عصور الإسلام ، أما قبل ذلك فلم يكن هناك فرق مطلقاً، بل كان كلّ من الكلمتين يدلّ على سكان البادية فحسب ، أما سكان المدن والأمصار فكانوا ينسبون إلى قبائلهم ويعرفون بمناطقهم [٣] .

ويرى مرة أخرى أن كلمة : عبرى تؤدى المعنى الذى تؤديه كلمة عربىّ نفسها ، أى أن العبريين هم قبائل رُحل كانت تنتقل بخيامها وإبلها من مكان إلى اخر .

وقد استدلّ على هذه النظرية بأن كلمة عبرى مشتقة من الثلاثى «عبر» الذى معناه بالعبريّة والعربية : « ذهب » « ورحل » ، وقطع مرحلة من الطريق ، أى أن كلمة عبري وعربى مشتقتان من ثلاثى واحد هو « عبر » فحدث قلب مكانى فى هذه الكلمة الثلاثية فصارت عربًا[٤] .

وفى رأيى أن المعاجم اللغوية تحدثت عن هذه التّفرقة فعلاً ، ولكنها مع ذلك نصت أيضاً على أن كلّ من سكن بلاد العرب وجزيرتها ، ونطق بلسان أهلها فهم عرب ، يمنيهم ومعدّهم كما قدمت .

---

(١) لسان العرب : « عرب »
(٢) تاريخ اللغات السّاميّة / ١٦٤ .
(٣) المرجع نفسه .
(٤) المرجع نفسه / ١٦٥ .

وأما القرن الذى ظهرت فيه هذه الكلمة ، فقد حددته النقوش والآثار التى اكتشفت فى عصرنا الحديث ، فقد أشار المستشرق لوبون فى كتابه : « حضارة العرب » إلى الأشورية التى تحدثت عن العرب ، فقال : « وذكر العرب قبل الميلاد بتسعمائة سنة فى بلاغ (سلما نصر الثانى) «وأدت ملكتان عربيتان فروض الطاعة (تيفلا نفانصر) ، قبل الميلاد بنحو ثمانمائة سنة ، واستعان : « بانيبال » بجيوش عربيّة عندما رفع راية العصيان»[1] .

ويقسم المؤرخون العرب إلى قسمين :

بائدة ، وباقية . ومن العرب البائدة : عاد ، وطسم ، وعمليق ، وجرهم ، ووبار . والعرب الباقية : أولاد قحطان وأولاد عدنان »[2] .

وليس ثمة شك فى أن هذه القبائل العربية كانت تتكلم بلغة واضحة المعالم ، بينة السمات ، وهذه اللغة هى العربية ، والعربية من أقدم اللغات الساميّة كما تنصّ على ذلك كتب العبريين .

على أن هذه القبائل العربية لم تغلق على نفسها أبواب مساكنها ، بل اختلطت اختلاطاً شديداً بغيرها من أجناس الأمم .

اختلطوا بالمصريين حينما اتحدت قبائل من العمالقة مع عرب سوريا ، واستولوا على مصر فى حملة معروفة فى التاريخ المصرى القديم بحملة الهكسوس سنة ٢٠٠٠ ق .م وعرفوا بالرّعاة، ودام سلطانهم قروناً كثيرة »[3] .

وتنص الكتابات السماوية على أن قبائل ثمود التى كانت تقيم في بلاد الحجاز اشتبكت فى معارك طاحنة مع سرجون ملك آشور الذى مزقهم كل ممزق ، وأجلى البطون الثّمودية الثائرة فى بلاد العرب إلى مدينة غزة بفلسطين[4] .

---

(١) حضارة العرب ٩١

(٢) تاريخ الأدب لحفنى ناصف ٨ .

(٣) حضارة العرب / ٩٠ .

(٤) المرجع نفسه ١٧٤

وقـدماء اللحيانيّين الذين كانـوا يقيمـون فى الحجاز عرفوا بالقوة والبطش حتى كان الرومان يستأجرون منهم الجنود والعساكر [١] .

ومما لاشك فيه أن هذا الاختلاط الذى حدث بين العرب وغيرهم فى تاريخهم القديم آدى إلى التفاعل اللغوى مما جعل اللغة تتطور فى قوة حتى اكتمل بناؤها ، واتسعت مفرداتها بفعل هذا الاحتكاك .

ولا أدلَّ على ذلك من اعتراف المستشرقين أنفسهم بهذه الظاهرة ، فقد قال (ولفنسون): إن اللغة العربية تشتمل على عناصر تدلّ على أنها بصورتها الحالية ليست أصلية قديمة بل إنها صيغ مرّت عليها تقلّبات كثيرة، وتغيّرات فى حين أن هذه الكلمات توجد فى العبرية أو الآرامية دون أن يظهر عليها شىء من أثار هذا التبديل ، فمثلاً كلمة:« قول » تؤدى بالعبرية معنى : صوت . أما فى العربيّة فلا تطلق إلا على جملة أصوات مجتمعة وكذلك : « أمر » تدل على الكلام العادى ، وتدل فى العربية على الطلب بشدّة » [٢] .

وقد استطاعت العربيّة بما تحمل من عناصر الحياة والتطور أن تؤثر كما تقول روايات المستشرقين أنفسهم فى « النّبط الآراميين » فكان ذلك من أهم الأسباب التى حملتهم على نسيان لغتهم الآرامية ، وإيجادهم لأنفسهم لغة مزيجاً من لغة الآراميين والعرب ولم يكن هذا المزيج مفهوماً عند العرب فأطلقوا عليه الرّطانة النبّطيّة » [٣] .

من هذا العرض التاريخى السابق أستطيع أن أقول: إن هذه اللغة العربية لغة قديمة تكونت بمرور الزمن، وعبر التاريخ، وسارت فى طريق التطور بخطى واسعة حتى وصلت إلى ما قبل الإسلام إلي الذروة من التّقدم والرقى، على حين تجمدت اللغات السامية الأخرى لتصبح أثراً بعد عين.

---

(١) المرجع نفسه والصفحة .

(٢) تاريخ اللغات / ١٦٩

(٣) المرجع نفسه / ١٧٣

ومن المنطق أن أقول : إن لغة احتكّت بغيرها من اللغات الأخرى، فأثّرت فيها ووصلت إلى هذه الدرجة من التّطور لابد أن تكون موردا لغيرها من اللغات الأخرى ، تمدها بما تحتاج إليها من مفرداتها الواسعة ، وبمرور الزمن أصبحت هذه المفردات العربية لبنات فى بناء الأمم التى اختلطت بالعرب .

ولا يصح فى منطق التفكير السليم أن نقول : إن القرآن الكريم استعارها من هذه اللغات إذا قلنا ذلك فهذا تحكم لاتسنده إلا هذه الأخبار التى ذكرها الرواة ، وهى أخبار واهية تتعارض مع صريح القرآن الكريم نفسه حينما يقول : « إنا أنزلناه قرآناً عربيًا» (١) ومن العجيب حقاً أن ندعى أن مفردات اللغة العربية التى عاشت هذا العمر الطويل ، وتطورت هذا التطور الكبير عبر التاريخ ، وعبر الأجيال تمثلها هذه المعاجم اللغوية ، أو هذه الرّوايات التى جمعتها لنا رواة العرب حينما بدءوا يدونون اللغة .

أجل قد أحس بهذه الحقيقة راوية من كبار الرواة ، وعميد من عمداء اللغة ، إنه أبو عمرو بن العلاء الذى يقول : « ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله ، ولو جاءكم لجاءكم علم وافر وشعر كثير » (٢) .

على أن العقل لا يمكن أن يسلم بأعجمية هذه الكلمات من ناحية أخرى ، فهذه الكلمات كما يقول السيوطىّ : أكثر من مائة لفظة » . وهو عدد قليل جداً بالنسبة إلى كلمات القرآن الكريم التى تبلغ فى رواية الفضيل بن شاذان عن عطاء بن يسار سبعا وسبعين ألف كلمة ، وأربعمائة وسبعا وثلاثين كلمة » (٣) فما السّبب إذا فى أن يمدّ القرآن الكريم يده لأخذ هذه الكلمات المائة من لغات العجم .

هل اللغة العربية فقيرة إلى هذا الحدّ ، فتطلب المعونة بهذه الكلمات ، كيف ذلك وهى اللغة التى لا تستطيع أن تجاريها لغة أخرى في مجال الاتساع ؟

---

(١) يوسف ٢

(٢) الأغانى ٢١

(٣) البرهان فى علوم القرآن ١ ٢٤٩

كيف ذلك ، وهى اللغة التى تحفظ للمعنى الواحد المئين من الألفاظ ، استمع إلى السيوطى يقول فى المزهر : « إن العجم لا تعرف للأسد أسماء غير اسم واحد فأما نحن فنخرج له خمسين ومائة اسم »[1] .

ويجدر بى أن أعزز رأيى فى هذ المجال برأيين لرجلين من أعلام الفكر فى العالم العربى فى عصرنا الحاضر ، وهما المرحومان : الدكتور عبد الوهاب عزام ، والشيخ أحمد شاكر.

- رأى الدكتور عبد الوهاب عزام :

يرى أن اللغات الساميّة وجاراتها تبادلت ألفاظاً فى عصور متطاولة قبل الإسلام فدخل فى الفارسيّة مثلا ألفاظ ساميّة ، فَزُبّ لفظ فارسىّ يظنّ أصلاً للفظ عربىّ هو فى الحقيقة لفظ سامىّ تسرب إلى الفارسية فى العصور القديمة، وقد بعّد الباحثين عن الصواب ظنهُم أن العربية لم تهب اللغات الأخرى من ألفاظها إلا فى العصور الإسلامية[2] .

رأى الشيخ أحمد شاكر :

يرى أن العرب أمة من أقدم الأمم ، ولغتها من أقدم اللغات وجودًا ، كانت قبل إبراهيم وإسماعيل ، وقبل الكلدانيّة والعبريّة والسّريانية وغيرها بل الفارسية، وقد ذهب منها الشىء الكثير بذهاب مدنيّتهم الأولى قبل التاريخ ، فلعل الألفاظ القرآنية التي يُظن أن أصلها ليس من لسان العرب، ولا يعرف مصدر اشتقاقها، لعله من بعض مافقد أصله[1] .

وبعد ، فلعلى بهذا العرض لهذه القضيّة استطعت أن أضع النقاط على الحروف دفاعاً عن كتاب الله الذى نزل بلغة عربية، هذا من ناحية ، ولعلى من ناحية أخرى

---

(١) المزهر ١ ٣٢٥

(٢) مقدمة المعرب للجواليقى / ٤

(٣) من مقدمة الشيخ أحمد شاكر لمعرب الجواليقى ١٣ ، هذا وقد لخص بحث قضية اللغات الأعجمية فى كتابى «من الدراسات القرآنية» من ٥١ ٦٦

أسدُ الباب أمام هؤلاء اللغويين المحدثين الذين يدّعون أن القرآن الكريم سار على منهج التعريب حينما أخذ عن الفارسية والحبشية وغيرهما .

ونحن نلجأ إلى التعريب . لأننا لم نعش فى أعماق اللغة لنستخرج الكلمة الدالة واللفظة المعبّرة ، وذلك لعجزنا عن الإحاطة باللغة من ناحية، ولإيثار مدّ اللغة العربيّة بكلمات جديدة سيرًا على مبدأ التّطور اللغوى من ناحية أخرى ، وقد حدث ذلك بالفعل حينما اختلطت الحضارات الوافدة بلغة القرآن الكريم ، وذلك ما نتحدث عنه فى الفصل الآتى .